

كم مرة مِتّ، ولم يُقَمِّ لك عزاء؟

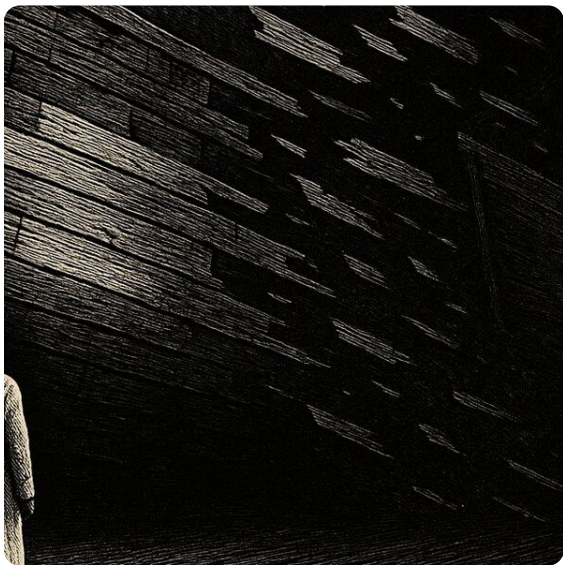
13 سبتمبر 2026

فكر وتحليل

15 دقيقة قراءة

www.saudieinstein.com

كم مرة مِتّ، ولم يُقَمِّ لك عزاء؟



شريحة إيلون ماسك، وشعرة الأصبع، وسؤال
«من أنا؟» الذي ليس له جواب
مِتَّ من قبل.

لا مرة واحدة. مرات.

الطفل الذي كان يبكي في أول يوم مدرسة
مات. والمراهق الذي كان يظن أن الدنيا تنتهي
إن لم ترد عليه فتاة مات. والشاب الذي وقّع أول
عقد عمل وهو يرتجف مات أيضاً.
ولم يُقم لهم أحد عزاء. ولا أنت.

لأنك تفترض أن شيئاً واحداً بقي ثابتاً تحت كل
هؤلاء، خيطاً اسمه «أنا» يمرّ من الطفل إلى
الرجل دون أن ينقطع.

جرّب أن تمسكه.

جرّب أن تحدد متى تغيّرت. ليس «تغيّرت كثيراً»،

بل متى. أي سنة، أي شهر، أي قرار انتهى فيه
ذاك وبدأ هذا.

لن تجد. وأنا لم أجد. وصديقي خالد لم يجد،
وهو الذي أجراها أمامي على الطاولة.
كنا في استراحة خارج الرياض، بعد أن انفضّ
الناس وبقي الفنجان الأخير. كان خالد قد خرج
قبل شهرين من عملية قلب مفتوح؛ ثلاثة
شرايين مسدودة، وطبيب قال له قبل التخدير
إن الاحتمالات جيدة «لكن لا أحد يضمن».

خالد الذي أعرفه كان يخاف من الموت خوفاً
يُضحك أصحابه: لا يركب طائرة إلا مضطراً، ويقرأ
عن كل ألم في جوجل، ويؤجل الفحوصات كي لا
يسمع خبراً سيئاً. ومع ذلك دَخَن ثلاثين سنة، لأن
الخوف من الموت والهرب من مواجهته يسكنان

الرجل نفسه.

تلك الليلة مدّ له أحدهم علبة الدخان بحكم
العادة.

فنظر إليها كأنها تخص رجلاً آخر.
وردها.

ثم قال: «ما أدري وش رجع من غرفة العمليات.
اسمي نفسه، وجهي نفسه، لكن الرجال اللي
كان يخاف من الموت ما رجع». وشرح: نام على
الطاولة وهو موقن أنه قد لا يستيقظ،
فاستيقظ. وشيء في داخله، الشيء الذي
كان يرتجف كلما ذُكر الموت، لم يستيقظ معه. لا
شجاعة اكتسبها.

بل خوف مات.

ضحكنا. كلنا ضحكنا.

ثم بعدها بسنة سمعتُ إيلون ماسك يعد الناس
بنسخة احتياطية من ذاكرتهم، فتوقفت عن
الضحك. لأنني فهمت أن خالد لم يكن يصف حالة
نادرة، بل الحالة العادية، لكن بسرعة كافية
لثري.

أولاً – الرجل الذي يبيعك نسخة احتياطية من
نفسك

في المستقبل ستستطيع أن
تحفظ ذكرياتك وتعيد تشغيلها...
يمكنك أن تخرّجها كنسخة
احتياطية وتستعيدها، بل قد
تنزّلها في النهاية في جسد جديد
أو جسد آلي.

– إيلون ماسك، عرض نيورالينك، أغسطس
2020

في يناير 2024 زرعت نيورالينك أول شريحة في
دماغ إنسان. شاب أمريكي مشلول من الرقبة،
صار يحرك مؤشر الحاسوب بفكره ويلعب
الشطرنج على الشاشة. وبعد أشهر انسحبت
أغلب الخيوط الدقيقة من دماغه، فتراجع الأداء،
ثم عوّضوه بالبرمجيات.

هذا هو الواقع اليوم: مؤشر على شاشة.

أما الوعد فأكبر بكثير.

ذاكرة تُحفظ. شخصية تُخزّن. ثم، يوماً ما، تُنزل
في جسد آخر.

ولا يهمني هنا إن كان الوعد صادقاً أم تسويقاً؛
يكفي أن يتخيله ملايين الناس كي يُفتح باب لم

يكن مفتوحاً.

لأن السؤال الذي يقفز فوراً: لو نزلوا ذاكرة خالد
وشخصيته في جسد جديد، هل هذا خالد؟
نصف الناس يقولون: طبعاً هو. النصف الآخر:
طبعاً ليس هو.

وكلا النصفين مخطئ، للسبب نفسه.
كلاهما يفترض أن هناك جواباً حاداً ينتظر أن
نكتشفه. وسأحاول أن أقنعك، على مهل، أن
هذا الافتراض هو المشكلة كلها. ليس في
الشريحة. فيك أنت.

ثانياً – شعرة الأصبع ولوح السفينة

السفينة التي عاد فيها ثيسسيوس
وفتيان أثينا من كريت حفظها
الأثينيون، ينزعون الألواح القديمة

كلما بليت ويضعون مكانها خشباً
جديداً، حتى صارت مثالاً بين
الفلاسفة: فريق يرى أنها بقيت
السفينة نفسها، وفريق يجادل أنها
ليست هي.

– بلوتارخ، حياة ثيسسيوس
قبل أن نصل إلى الدماغ، لعبة صغيرة عمرها
ألفان وأربعمئة سنة.
رجل بشعر كثيف. انزع شعرة، لم يصبح أصلع. انزع
أخرى. ثم أخرى. ستصل حتماً إلى الصلع.
فأين كانت الشعرة التي فعلتها؟
إن قلت الشعرة رقم 4,317، فسأسألك: ما الذي
يميّزها عن 4,316؟
لا شيء.

لا يوجد في تلك الشعرة أي سرّ. الحد وضعته
أنت لغرض عملي، لا لأنك وجدته في الطبيعة.
الآن ضع السفينة مكان الرأس.

لو اشترطت أن تبقى السفينة هي هي ما دام
أكثر من نصف ألواحها أصلياً، فأنت تقول إن اللوح
الذي نقل النسبة من 49.99% إلى 50.01%
هو اللوح الذي قتل السفينة.

لماذا هو؟

لا شيء فيه.

وهذا وحده، قبل أي فلسفة معقدة، يكفي
لتسقط فكرة كاملة: النسبة المادية ليست
معيار الهوية. ليست 51 ولا 70 ولا 90. أي رقم
تختاره ستجده اعتباطياً بمجرد أن تسأل: ولماذا
ليس الرقم الذي قبله؟

احفظ هذه الحركة. سنستخدمها على خالد.

ثالثاً - خالد... خلية خلية

حين أدخل في أعرق ما أسمّيه
نفسى، أعر دائماً على إدراك ما:
حرارة أو برودة، ضوء أو ظل، حب أو
كراهية. لا أستطيع أبداً أن أمسك
نفسى بلا إدراك، ولا أن ألاحظ
شيئاً غير الإدراك.

- ديفيد هيوم، رسالة في الطبيعة البشرية
لو مات اليوم واحد في المئة من خلايا خالد
وتجدد غيرها، فهو خالد. يحدث هذا فعلاً كل
يوم، ولا أحد يقيم له عزاء.
عشرة في المئة عبر سنة؟ خالد.

ثلاثون في المئة عبر عقد؟ ما زال خالد، وإن كان
يشتكي من ركبته.

الآن الدماغ، وهنا تصبح لعبة الفلاسفة شيئاً
يُباع في مؤتمر.

استبدلنا خلية عصبية واحدة بدائرة صناعية
تؤدي وظيفتها بالضبط. هل مات خالد؟ لا أحد
يقول ذلك.

ألف خلية. مليون. ثم أربعون في المئة من
الشبكة، تدريجياً، على مدى سنوات، وهو طوال
الوقت يتذكر أبنائه ويحب القهوة العربية
ويكره الزحام على الدائري الشرقي، ولا لحظة
واحدة يشعر فيها بانقطاع.

كل صباح يستيقظ ويقول عن الرجل الذي نام
أمس: أنا.

فأين تضع الحد؟ عند 50.0001%؟

عد إلى الشعرة.

حسناً، إن سقطت النسبة، فما الذي يجعل خالد
خالداً؟ ثلاثة مرشحين فقط، وهذا أنظف
تقسيم وجدته:

الجسد. يبدو بديهياً حتى تصل إلى زرع الدماغ.
لو نُقل دماغ خالد كاملاً إلى جسد آخر، اسأل أي
إنسان، من أستاذ الفلسفة إلى بائع الشاي في
الحراج: أين ذهب خالد؟ سيقول: مع الدماغ.
الجسد القديم صار شيئاً نوّده، لا شخصاً نزوره.
الدماغ. أقوى، لكنه يعيدك مباشرة إلى
الاستبدال التدريجي والنسبة والشعرة. سفينة
ثيسينوس من لحم.

الخيوط النفسية. الذكريات والشخصية والقيم،

والأهم: الإحساس بأن حالتك اليوم نمت من حالتك أمس، لا قفزت إليها. هذا أقوى المرشحين عندي، وهو ما رآه هيوام حين بحث في نفسه عن «النفس» فلم يجد إلا موكباً من الإدراكات المتعاقبة. القصر مليء بالحركة، ولا ملك.

لكن انتبه: حتى الخيط لا يعطيك خطأ حاداً. رجل أصيب بخرف شديد. عند فقد 20% من الذاكرة، هل رحل؟ 50%؟ 80%؟ أبنائهم لا يعرفون ماذا يقولون للناس، لأن اللغة تريد جواباً واحداً والواقع يعطيهم تدرجاً.

لا يوجد رقم نظيف. لم يوجد قط.

رابعاً – شلة الخميس

لنبتعد عن الفلاسفة قليلاً ونذهب إلى

الاستراحة نفسها.

الشلة تلعب البلوت كل خميس منذ عشرين سنة.

في البداية كانوا أربعة: أبو فهد، وسعد، وخالد، وناصر. ثم سافر ناصر، فجاء ابن عمه. ثم انشغل سعد بزواج ابنته سنة كاملة، فحلّ محله زميل عمل. ثم عاد سعد، لكن زميل العمل بقي، فصاروا يتناوبون. ثم مات أبو فهد، رحمه الله، وجاء ابنه.

اليوم، إن سألتهم: هل هذه شلة الخميس؟ سيقولون بلا تردد: «هذي شلتنا من أيام الجامعة».

مع أنه لا يجلس على الطاولة اليوم إلا واحد من الأربعة الأصليين.

فما الذي بقي؟

لم تبقَ الأجساد. بقيت الطريقة التي يُشترى بها، والنكتة التي تُقال حين يخسر أحدهم الصكّة الأخيرة، وطريقة صبّ الفنجان، وقصة ليلة 2009 التي يرويها كل جيل للجيل التالي. بقي الخيط: كل عضو دخل لأن عضواً قبله أدخله، وتعلّم من الطاولة قبل أن يعلّمها.

ولو جاء اليوم أربعة غرباء واستأجروا الاستراحة نفسها ولعبوا اللعبة نفسها، ما قال أحد إنهم شلة الخميس. لا لأن أجسادهم مختلفة، بل لأن الخيط مقطوع.

الخلاصة: الهوية ليست فيما يبقى من المادة، بل في الخيط الذي يربط كل حالة بما قبلها. اقطع الخيط تمت الشلة والأعضاء أحياء، وأبقه تبق

الشلة وقد تبدل الأعضاء كلهم.

أدت الاستراحة عملها. نعود إلى ما هو أصعب،
لأن الخيط نفسه سينقطع بعد قليل.
خامساً – السؤال الذي ليس له جواب في
الكون

ما يهم ليس أن يوجد شخص حي
سيكون هو أنا. بل أن يوجد على
الأقل شخص واحد حي متصل بي
نفسياً كما أنا الآن.

– ديريك بارفيت، «عدم أهمية الهوية»
في أواخر القرن العشرين جلس فيلسوف
بريطاني هادئ اسمه ديريك بارفيت أمام هذه
المشكلة كلها، وخرج بشيء أشد إزعاجاً من كل

ما سبق.

قال: ربما نخطئ في السؤال نفسه.

نحن نفترض أن هناك حقيقة إضافية، فوق كل الحقائق الجزئية، اسمها: «هل هذا هو الشخص نفسه أم لا؟»

بينما الواقع قد لا يحتوي إلا على حقائق الاستمرارية: كم بقي من الذاكرة؟ كم بقي من الشخصية؟ ما مقدار الاتصال بين الحالتين؟ هل توجد سلسلة واعية متصلة؟

ثم نأتي نحن ونطلب فوق هذه الحقائق جواباً ثنائياً: هو، أو ليس هو.

وقد لا يكون في الكون جواب إضافي ينتظر أن نكتشفه.

أي أن سؤال الهوية، عند الحالات الحدودية،

سؤال بلا حقيقة حادة. ليس لأننا نجهل شيئاً، بل لأنه لا يوجد ما نجهله. كل الحقائق معروفة، والسؤال يطلب أكثر مما هو موجود.

وهنا يعود ماسك من الباب.

تذكّر وعده: نسخة احتياطية تُستعاد. حسناً، استعدها وخالد ما زال حياً. الآن عندك خالدان. كلاهما يتذكر طفولته في الملز. كلاهما يتذكر أسماء أبنائه. كلاهما يتذكر علبة الدخان التي ردها في الاستراحة.

كلاهما يقول بيقين تام: أنا خالد.

لا يمكن أن يكونا معاً الشخص نفسه، إن كانت الهوية علاقة واحد إلى واحد. لكن كليهما يحمل الخيط النفسي كاملاً حتى لحظة النسخ.

هنا تنهار المعادلة التي بدت متينة قبل قسمين:

الخيطة النفسية يساوي الهوية.

فقال بارفيت ما لم يجرؤ عليه كثيرون: ربما ما يهمنا ليس الهوية أصلاً، بل علاقة الاستمرار من النوع الصحيح. وإن انقسمت إلى فرعين، فلم يمت أحد. حدث شيء غريب، نعم، لكنه ليس موتاً.

وشبه الأمر بمجتمع يولد فيه كل الأطفال توائم، ثم يولد فجأة ثلاثة توائم. هل نبكي لأن أحدهم «ليس له توأم»؟ أم نراجع تعريفنا؟

(النسخ الرقمي لم يخترع المشكلة. كشفها فقط. البشر لا يتفكرون حرفياً، فيتخيلون أنهم في مأمن منها. وهم يواجهونها كل يوم، ببطء.)
سادساً – لماذا لا تشعر بأنك تموت

لا تحتاج إلى شريحة كي تقع في هذه

المشكلة. يكفي أن تعيش.

الجامعة تعطيك ورقة تقول إنك «تخرّجت»، كأن شيئاً انتهى في لحظة الحفل. لم ينته. كنت تتخرج طوال أربع سنوات وتنتهي طوال العشر التي بعدها.

الزواج يعطيك تاريخاً. لكن الرجل الذي وقّع العقد والرجل الذي يجلس اليوم مع الأبناء ليسا الرجل نفسه بأي معيار نفسي، والمرأة تعرف ذلك قبله، ولهذا تقول أحياناً: «ما عدت تشبه اللي تزوجته». وهي محقة حرفياً، لا مجازاً. والوزير الذي أُعفي يوم الثلاثاء يسأل نفسه يوم الأربعاء: هل أنا الرجل نفسه؟ والجواب المزعج: لا، ولم تكن قط رجلاً واحداً.

فلماذا لا تشعر بكل هذا الموت؟

لأن الأداة التي تقيس به التغير هي نفسها ما يتغير. كل نسخة منك تنظر إلى النسخة السابقة وتقول «أنا»، لأن هذا بالضبط ما يعنيه أن يكون الخيط موصولاً. ثم تنظر إلى صورة قبل خمس عشرة سنة وتضحك على قصة الشعر، ولا تسأل: من هذا؟

خالد شعر بالموت لأنه حدث له في ثلاث ساعات تحت التخدير.

أنت لا تشعر به لأنه يحدث لك في ثلاثين سنة. الفرق في السرعة فقط.

سابعاً – خمسة أسئلة تكشفه فيك، لا في خالد لا يوجد فحص كامل تجريه على نفسك. لكن الأوهام تتسرّب. هذه أسئلة صرّت أراقبها، وجربتها على نفسك لا على غيرك؛ تشخيص

الآخرين أسهل بكثير، ولهذا هو أقل فائدة.

(1) أي نسخة تدافع عنها؟ حين ينتقد أحدهم قراراً اتخذته قبل عشر سنين، هل تدافع عنه كأنه قرارك اليوم؟ إن كان الجواب نعم، فأنت تسدّد ديون رجل لم يعد موجوداً.

(2) ما الخيط الذي لو انقطع لقلت: هذا ليس أنا؟ ليس الوزن ولا الوظيفة ولا الشعر. ابحث عن الشيء الذي لو تغيّر لشعرت أنك رحلت. عند أغلب من سألتهم كان الجواب في القيم لا في المادة، وهذا وحده يخبرك أي المرشحين الثلاثة تصدّقه فعلاً.

(3) هل تخاف من الموت أم من الانقطاع؟ افصل بينهما. الخوف عند كثيرين ليس من انعدام الإحساس، بل من انقطاع الخيط. فإن استمر

الخيـط في أبـنائـك وتـلامـيـذك وما بـنيتـه، فـما الـذي
انـقـطـع بالـضـبـط؟ لا أجـيـب عـنـك. أسـأل فـقـط.

4) مـتى آخـر مـرة سـمـحت لـلنـسـخـة الـقـادـمـة أن
تـخـتـلـف؟ أم أنـك تـحـرس النـسـخـة الـحـالـيـة كـأنـها
أصـل يُحـفـظ في مـتـحـف؟ الأثـيـنـيـون لـم يـحـفـظوا
السـفـيـنـة بـمـنـع تـغـيـير الأـلـواح. حـفـظوا بـتـغـيـيرها.

5) مـن يـبـقى حـيـن يـذـهـب الـاسـم؟ انـزـع الـاسـم
والـمـنـصـب والـصـورـة في الجـوال. بـماـذا يـعـرفـك
النـاس؟ إـن كـان ثـمـة جـواب، فـذاـك هـو خـيـطـك.
وإـن لـم يـكـن، فـهـذـه أـيـضاً مـعـلـومـة.

إـن أـزـعـجـتـك هـذـه الأـسـئـلة فـجـيـد. لا تـحوّل الـانـزـعـاج
إلى قـلق وـجـودـي، بـل إـلى ثـلاثـة أـفـعـال.

اـكـتـب لـلنـسـخـة الـقـادـمـة، لا لـلـحـالـيـة. قـرار وـاحـد هـذا
الشـهر تـتـخـذـه لـمـصـلـحـة مـن سـتـكـونـه بـعـد خـمـس

سنوات، لا لراحة من أنت اليوم. سيبدو تضحية.
ليس تضحية. هذا ما يفعله الخيط حين يُحسن عمله.

اقطع ديناً واحداً لنسخة قديمة. موقف تدافع عنه منذ سنين لأنك قلت، لا لأنك ما زلت تراه. قل: كان ذاك رأي رجل آخر. لن يسقط شيء. جرّب.

واختر خيطك قبل أن يختاره لك الزمن. إن كانت الهوية علاقة استمرار من النوع الصحيح، فأنت من يقرر أي نوع. الأثينيون قرروا أن السفينة هي التي تحمل الحكاية، لا التي تحمل الخشب. قرّر أنت ما الذي يجب أن يُحمل. ثامناً – متى متّ آخر مرة؟

يمكن أن يكون من الصعب أن

نصدّق أن الهوية ليست هي ما
يهم.

– ديريك بارفيت

أعرف أول ردة فعل: طيب، وبين خالد؟
إن لم تكن النسبة، ولا الجسد، ولا الدماغ، ولا
حتى الخيط النفسي تعطي خطأ حاداً، فأين
ذهب الرجل الذي كان يخاف من الموت؟
والجواب الذي أراه الأقرب، وهو مزعج ومحرّر
معاً:

لم يذهب إلى مكان.

لأنه لم يكن قط «شيئاً» يذهب.

«الذات» متدرّجة في بنيتها الواقعية، وثنائية
فقط في لغتنا وقوانيننا. نحن نحتاج أن نقول:
خالد نفسه، أو رجل آخر. لأن المحكمة تحتاج

جواباً، والإرث يحتاج جواباً، والزوجة تحتاج جواباً،
وأنت تحتاج جواباً كي تنام.

لكن الطبيعة تقول شيئاً أقل ترتيباً: هذه الحالة
متصلة بتلك بدرجة عالية. ثم تسكت. لا تضيف:
وهذا جوهر خالد.

فسفينة ثيسوس ليست مشكلة عن السفن.
هي مشكلة في افتراضنا أن لكل شيء هوية
ثابتة ذات حد حاد عبر الزمن. والشعرة ليست
مشكلة عن الصلع. هي مشكلة في إصرارنا أن
كل تدرّج يخفي عتبة سرية لو بحثنا جيداً
لوجدناها.

لا توجد عتبة.

يوجد مسار واحد يتغير. ونحن نقطّعه إلى نسخ
ونعطي كل نسخة اسماً، لأن اللغة لا تعرف أن

تشير إلى نهر إلا إن سقته.

وشريحة ماسك، إن جاءت يوماً، لن تجيب عن سؤال «هل هذا خالد؟». ستجعله فقط مستحيل التأجيل.

فلا تنتظرها.

السؤال الذي يستحق عمرك ليس: من أنا؟ هذا سؤال بلا جواب في الكون.

بل: أي خيط أريد أن يستمر... وماذا أفعل اليوم كي يصل إلى الطرف الآخر؟

ومتى متَّ آخر مرة... وهل كان ذلك خسارة؟